المقتطف

الجزء الثاني من المجلد السابع بعد المائة

١ يوليو سنة ١٩٤٥ — ٢١ رجب سنة ١٣٦٤

الفيلسوف الباكي

هيرقليطس الايوني[1]

« هنالك شموس انطفأت أمام أعيننا ، وأخرى تومض بضعف كأنما هي شمعة كادت تنطفئ . أما السماوات ، التي تخيل للناس أنها ثابتة لا تتغير ، فإنها لا تعرف من معنى الأبدية ، إلا أبدية أنها مسوقة في مجرى الأشياء » .

أناتول فرانس : في حديقة أبيقور

لا طفرة في الطبيعة . لا تعرف الطبيعة الطفرة ، لا في عالم الانتاج الفكري ، ولا في عالم التوليد العضوي . كذلك نجد في عالم الفلسفة أن « البدايات المطلقة » هي في حكم المستحيلات . وإنك مهما عينت مبتدأ هذه الفكرة أو ذلك المذهب ، أو حددت منتهى أحدهما ، كمذهب « التذكّر » — Reminiscence أو مذهب « الدفق المستمر » — Perpetual flux أو نظرية « الاستقراء » ، أو النظرة الفلسفية بوجه عام ، فإن الأخصائي في مستطاعه دائماً أن يقع على أمارة أو مبتدأ لذلك المذهب أو تلك النزعة الفلسفية . فإن أكثر أعمال التحليل العقلي غزارة ، تحتاج إلى زمان حتى تتكوّن وتبدأ في الظهور . والمعرفة التأملية في أبسط مظاهرها ، والتجريدات التي تبلغ من التفاهة بحيث يتعذر علينا أن نعتقد أن عقلاً بشرياً قد يخلو منها، ينبغي لها أن تبدأ ثم تنمو ، ولكن بصعوبة وجهد جاهد . والفلسفة نفسها ، عقلية أو أدبية ، لها عهداتها ومدلّلات ميلها وسوابقها ، مصوّرة في العمر الذي يسبق ظهورها في المادة . فعبارة من العبارات التعميمية القوية مثل التي لفظها

(١) صورة فلسفية سوف نعقب عليها بصور أخرى حتى تظهر هذا الفيلسوف العظيم في لوحة ظاهرة الألوان .

« هيرقليطس » عندما نظر في تدفق الوجود وعدم استقراره قال — « الأشياء تدلف بعضها في إثر بعض »(١) — Panta rei — قد تحدث شيئاً من التيقظ تجدّها في بعض العصور ، ولكنها تثبت في العقول، لأنه يختفي من وراء أرومتها الفكرية ، غريزة طبيعية من غرائز العقل ، لم تستكمل قوامها ولم تحز كل قوتها .

***

اعتقد الكثيرون أن « أفلاطون » هو خالق الفلسفة . ولا مرية في أنه قد اصطنع في عالم الفلسفة تقدماً عظيماً ، نقلها من خشونة البدايات التي نلحظها في البحوث الفلسفية التي ذاعت عند اليونيين أو الأيلاويين ، إلى تلك الآفاق العليا التي ظهرت فيها الفلسفة كاسية حلة الأدب الرفيع، فكأنه بلغ بالفلسفة غاية من غاياتها العليا . وإنّ نظرةً في عالم معرفة ذلك النظر الموسوعي الشامل ، لأكثر من خطوة ارتقائية . فلم يمر بالعقل البشري من قبلها نظرة بزّتها قوة أو جمالاً أو تغلغلاً في صميم الأشياء ، بحيث يمكن أن تقرن بها . وما عمل أفلاطون قد يلوح ، مع التأمل ، كأنه ابتكار صرف من المبتكرات التي يفخر بها العقل البشري في فجر حياته . ولكن الحقيقة ان الدنيا التي ولجها أفلاطون ، كانت تعج بالمذاهب والخلافات الفلسفية ، وتضج بالمنابذات الطائفية ، ومبادئ المدارس المتباينة . وكذلك اللغة ومذاهب الفكر ، كانت قد نالت منها السفسطة ، والجو الذي استنشق أفلاطون عبيره لم يكن جوّاً خالصاً من ذرّات تأمل مريض .

في كتاب « طيماوس » Timaeus الذي عالج فيه أصل الكون ، ظهر أفلاطون بمظهر الناقد الانتقائي ، أكثر منه مؤلفاً لنظرية حديثة في الفلسفة ، كما يدل على ذلك تلك الحيرة التي لابسته منذ ما مضى ينتقل من نظرية الى أخرى تنقضها ، وكما أننا قد نرى أن ذلك الكتاب قد أصبح كمخزن حشدت فيه كل النظريات الفيثاغورية ، كذلك يخيل الينا ، إذا ما قرأنا كتابه فرمنيدس — Parmenides — أن كل المشكلات الميتافيزيقية (الغيبية) قد مرّت بعقل أفلاطون وهو مكبّ على تسطير ذلك الكتاب . ندرك من ذلك أن بعض النتائج التي وصل اليها غيره من المفكرين السابقين عليه ، ولو انها كانت قد ماتت وذهب ريحها ، قد دخلت في فلسفته فكوّنت أجزاء من هيكلها . ترى ذلك أينما وليت وجهك في أنحاء ما كتب ، لا على الصورة التي ترى بها الأجزاء المنتحلة القديمة تزين واجهة بناء جديد متفرقة بين نواحيه ، ولكن تجدها منتثرة هنا ثم هنالك أشبه بالبقايا الدقيقة المستخلصة من حياة عضوية قديمة ، امتصت ثم مُثّلت ، فكانت في حياة جديدة ، جزءاً مقوماً منها .

(١) اضطررنا إلى رسم بعض الالفاظ اليونانية بحروف لاتينية للضرورة

ان كل شيء في الوجود هو مقولة منطقية قائمة بذاتها من مقولات الضرورة القاهرة . لذلك ترى أن العقائد مهما ضربت في الخيال ، ومشت مع التصور ، كشيوعية أفلاطون مثلاً ، انما تقع على أصولها الطبيعية إذا ما رددتها الى تلك المقولات ، وما نقصد بالمقولات هنا إلا الحالات التي أحاطت بها ، والتي لم تخرج تلك العقائد عن أن تكون جزءاً منها ، وليدة من مجموعها .

* * *

في الحياة الفكرية ، كما هي الحال في الحياة العضوية ، ترى ان كل كائن ، بما فيه من خصائص ، سويّة ولا سويّة ، انما هو خاضع في حتميته وجوده وعيشته ، لحكم « البيئة » . واذن يكون خير ما يعكف عليه دارس أفلاطون ، لا أن يؤيده في نقاش فلسفي ، ولا أن يعتنق آراءه أو يرفضها ، أو يكيفها ، أو أن يلتمس الأعذار عما يظهر في أفلاطون من ضلال عن الحق ، أو ان يزود عقله ببراهين وأدلة تؤيد اهرية أو معتقدات يكونه هو في عقليته [illegible]

يتتبع حركات اللاعبين في ملعب عام ، وخير من ذلك أشكل من [illegible] من [illegible] البارزة ، مثل رواية هملت أو منظومة دانتي أو جمهورية أفلاطون ، ان يلحظ أنه انما يرقب من خلال السطور عقلاً جباراً قوياً فياضاً ، يحاول أن يعبر عن نفسه ، [illegible] محوط بمجموعة معقدة من الحالات ، لا يمكن أن تتكرر في الواقع مرة أخرى ، مجموعة اختصت ، ذات عصر ، بصفات متعارضة ، فكانت لنا خصبة ، دمثة ، موجهة في وقت معاً ، ولكن تلك الترجمة قد صبت في قالب عمل أدبي عظيم ، هو تلك السطور التي تجري في [illegible] .

إن الأسلوب الطبيعي ، في نقد أفلاطون ، هو أن نضعه في موضعه الطبيعي ، فيكون بمثابة المقدمات هي حركات [illegible] والحياة الاغريقية عامة . تلك هي طريقة الأسلوب التاريخي ، وهو الأسلوب الذي في نقد أفلاطون ، وعليه ينبغي أن نقيس . وما أفلاطون هنا غير مثل اخترناه

***

أول ما يبهرك إذا ما مضيت تنظر في جمهورية أفلاطون ، علاقة تاريخية ، حقيقة أن بعضاً من فكراتها الأساسية قد استمدت من مفكرين تقدموه ، فقد يتفق أن يعطينا عن بعضهم معلومات مستقلة عن ما نستقيه من الجمهورية .

في مدى الحياة الاغريقية العامة بصور النشاط الفكري ، تقع هنا أو هناك على مفكر يعكس عن فكره عملاً من أعمال الوعي الفلسفي ، عمل يقوم به الفكر ببساطة ، [illegible] نتاج

التأثير المستمد من العالم المتطور الدائم التغير في ما يحيط به من الأشياء. ومن أسلاف أفلاطون الذين تقدموه في عالم الفكر، وهم كثيرون، ثلاثة أضفى عليها الفكر في العصور الحديثة شيئاً من القيمة وخصها بقسط من الأثر، تلقاه ما كتب الفيلسوف هيجل وغيره من المعقبين على مذاهب الفلسفة، فنجد فكراتهم، وربما نجد ألفاظهم بذاتها، مبثوثة في متن أفلاطون. وقد تبرز جلية واضحة في صفحات الجمهورية. منهم فيثاغورس، الذي قد يلوح للبعض كأنه انسان نصف خرافي، صاحب المذهب المعروف في العدد والموسيقى، وفرمنيدس، الذي يقول فيه أفلاطون تبجيلاً « أبي فرمنيدس » — رأس المدرسة الايلياوية، ثم ثالثهم هيرقليطس القائل بنظرية « التدفق المستمر ». ثلاثة من كبار المعلمين، ينبغي ان نعلم بأن كل ما وصل الينا منهم من التعاليم إنما هي أشتات فيها غموض. ولكن طريقة واحدة، تجعلنا نتقصى عقلياتهم ونستخلص ما علموا به استخلاصاً فيه بعض الثقة والتحديد، هي استقراؤهم من خلال ما كتب افلاطون.

هيرقليطس فيلسوف كتب فلسفته نثراً، ولكن في تضاعيف ما نثر روحاً من الشعر تشيع فيه، فنصف فلسفته مصوغ في قالب شعري منثور، وتأمل صب في قالب نثري فيه روح الشعر، ونصفها معلومات تعليمية، أداها في أسلوب فيه عبوس وابهام، ولكنها منبهة للفكر، محركة للتأمل نافذة إلى أعماق النفس. ولا ننسى مع هذا أن بعض النقاد قد رأوا ان نثره، في بعض المواضع، كان مثالاً احتذاه أفلاطون، فهو بذلك أحد الذين يعتبرهم أفلاطون آباءه في الفكر والحكمة. لذلك نقول إن أثره في أفلاطون — وأفلاطون في أول أمره من الهراقلة[1] — قد عمل في عقل أفلاطون وأثر فيه بقوة التضاد والركس العقلي (أي رد الفعل). فان وقوف أفلاطون موقف الضد والخصم من كل مذهب فلسفي قال بمبدأ « الحركة »، قد كان بمثابة « الفكرة الثابتة » التي لا يمكن أن يتولاها الوهن أو يؤثر فيها الدليل والبرهان.

هيرقليطس، فيلسوف من أهل « أفسوس » ويكفي أن نعرف من أفسوس أنها احدى المدن الاثني عشرة التي ألفت الحلف الايوني. مات قبل أن يولد أفلاطون بحوالي أربعين سنة. وكانت أفسوس في ذلك العصر مقر الحركة الدينية ومهبط أهل الدين في ايونيا، وكانت قد تخلصت منذ قريب من مستبدين استبدوا بها وقضوا على حريتها زمناً. أما هيرقليطس، فمن أسرة قديمة كريمة الأرومة، نبيل بمولده، سيد بمركزه الاجتماعي، كريم الخلق بطبعه. فكان في جو تلك الديمقراطية الاغريقية الحديثة المرتجة غير المستقرة،

(١) أتباع هيرقليطس

إن مبادئه الأساسية وفكراته الجوهرية التي قام عليها مذهبه ، تدفع بنا إلى الرجوع سعياً ، لا الى أسلافه الأقربين ، ولا الى معلمه العميق الغور سقراط ، الذي عاش في صفحات ما كتب أفلاطون ، ولكن إلى مدارس متفرقة سبقته ذكيت فيها التأمل الفكري في افريقية وأيونيا وإيطاليا . ومن قبل هؤلاء قد نرجع الى عصر الشعر ، ذلك العصر الذي نرى فيه بدايات الفلسفة تكاد تبدو من ضباب الزمن ، وهي لا تكاد تعرف ، حتى من قيمة ذاتها شيئاً .

ثم مد نظرك لأبعد من هذه الفلسفة غير الواعية لحقيقة ما هي ، وانغمر في ضمير الزمان الى تلك البدايات التي تمثلت في الميول العقلية والنزعات النفسية وتراءى قوى الفكر الى حجب العالم ، تجد أن هذه الأشياء قد شهدت ميلاد فكرات تمت الى فكرات أفلاطون بنسب ، منحدرة اليه من مدنيات عتيقة موغلة في القدم ، من الهند ومصر ، وتجد فوق ذلك أن هذه الفكرات لا تزال حتى اليوم تؤثر أثرها المحتوم في عالم التأمل .

تمثل فكرات أفلاطون ، كالثقة التي استحلها ، كلاهما اصطبغ بصبغة العهد ، وتمتا عن أثر العناية والدقة ، بالرغم من أن لهذه الفكرات وتلك الثقة ، أصحاب قدماء ، ترجع اليهم نشأتهما . وقلما نتهم بالمغالاة إذا قلنا إن أفلاطون بالرغم من الجدة التي تلحظها في لغته الفلسفية ، فإن كل موضوعات الحكمة التي تكلم فيها ليس فيها من جديد صرف . أو نقول إن آثار أفلاطون الفلسفية ، ككل نواتج العبقرية البشرية الانية ، ما يلوح فيها انه جديد ، انما هو قديم بمعنى ما ، هو تعليق أو تحشية ، مثلها كالثوب الجديد الذي يصنع من خيوط سبق أن استعملت من قبل في ثوب آخر ، او ككل كائن حي ، حادث جزئياته التي منها يتألف وماتت مرات عديدة على كر الزمان .

ليس من جديد إلا ذلك المبدأ الخالق الذي يهب الحياة ويؤلف بين عناصرها . الجديد هو الصورة الرئيسية ، واللون الذي تحلى به تلك الصورة ، والقوة التمييزية التي تلابس الفكرات الذائعة ، بما يدخل عليها من المجانسة والتوفيق والالفة . وبعبارة أخرى نقول إن الصورة هي الجديدة .

وبعد فإن الأمر في خلق أدب فلسفي جديد ، كالأمر في خلق أي أثر فني ، يوحي إلينا أن الصورة بأوسع معانيها ، هي كل شيء ، وإن المادة التي يتألف منها من حيث الجدة ، لا شيء .

هنالك ثلاثة أساليب بها تنقد الآراء الفلسفية ، بل وكل الآراء التي تنزع الى التأمل . فكل المذاهب والآراء التي بثت في جمهورية افلاطون مثلاً ، يمكن أن يخضعها الناقد جميعاً الى هذه الأساليب ليكشف عما فيها من الخطأ أو الصواب . وهذه الأساليب النقدية هي :

الأسلوب المذهبي : وهو طريقة الحكم في مستفادات الفكر الانساني ، وإن بحثت عن

فكر الناقد وعصره ، بمقتضى تلاؤمها أو تناقضها مع المبادىء التي قال بها باكون أو اسپينوزا أو مل أو هيجل أو غيرهم ، مقيسة على أفضل ما يتعلق به الناقد من التعبيرات العقلية .

ثم الأسلوب الانتقائي أو التوفيقي : وهو أسلوب يرمي الى أن يلتقط الناقد من المذاهب المتباينة أو المتعارضة ، ذُرَيْرات الحق المتناثرة في ثناياها بحسب ما يراه منها حقاً . وهو أسلوب يشيع في العصور التي تقوى فيها نزعة القراءة وتتسع فيها المعلومات ، ويكثر شحن الاذهان بالآراء والمفكرات ، ولكن بغير أن يكون للمعلومات المتجمعة عن هذه الصورة قوة أولية خاصة بها ، ومثلها مذهب الافلاطونية الجديدة كما شاع في مدرسة الاسكندرية في القرن الثالث الميلادي ، أو كما عاش في فلورنسا في القرن الخامس عشر . وأهم نقائص هذا الاسلوب الرئيسية فيه ، هي نزعته الى تشويه المذهب الأصلي الذي يحاول تبيانه وجلاء غوامضه ، لكي يلفق أو يؤلف بين أحسن ما فيه ، وبين العناصر الاولية في نظام فلسفي آخر مسلَّم وموثَّق به من ناحية الناقد .

هذان الأسلوبان النقديان غشّيا الطريق في القرن العشرين ، بتأثير نظرية هيجل الثابتة التي كوَّنها فيما دعاه « روح العصر » ، وهي روح دائمة التغير مستمرة الفيض والتدفق ، لأسلوب ثالث في النقد ، هو الأسلوب التاريخي . وهو أسلوب يحملنا على أن نردّ المذهب الذي نكب على نقده أو الأثر الفلسفي الذي انحدر الينا من مخلفات الماضي ، كجمهورية أفلاطون مثلاً ، بقدر المستطاع وجهد ما يصل الجهد ، إلى مجموعة الحالات العقلية والاجتماعية والمادية التي أحاطت به حال نشوئه . هذا إذا ما أردنا صادقين ان نتفهمه ونتفقه فيه . فإن هنالك بضعة مبادىء اقناعية بقوتها ، نستطيع أن نحكم من طريقها في أشياء العقل : أصويّة هي أم لا صويّة ، لدى أول تأمل نحصره فيها ، كما انها عدتنا بمعنى يقبله العقل من ناحية أصلها وكيفية نشوئها .

أول هذه المبادىء انه ينبغي لنا أن نعتقد أن لكل عصر عبقرية خاصة ، أشبه بعبقرية الأفراد ، وإن لكل عصر « صورة عامة » أو « طابع عام » يستمد من الحالات التي تدمغ كل ما ينتج في ذلك العصر من عمل أو فن أو تجديد أو تأمل أو دين أو أخلاق ، بل ويدمغ وجوه الناس أنفسهم ، وانه ما من شيء اصطنعه الانسان من طبيعة نفسه ، يمكن أن يفهم حق الفهم ويدرك حق الادراك ، إلاّ في عصره الذي نشأ فيه . ومن يفرعه الأصيل الذي خرَّجه من تضاعيف تلك الحركة الدائمة التي يختص بها هذا النظام التطوري . وان أسمى ما ينبغي أن ينصرف اليه من يتصدى لدرس المذاهب الفلسفية ، انما هو تنمية « الملكة التاريخية » في نفسه .

والتي لم تنبت أصولها بعد في تربة الاغريق ، كمرآة انعكست عليها الصور القائمة من حولها من غير أن تؤثر تلك الصور في صفائها بشيء ، رغم انها كانت عنيفة هوجاء ، وكذلك ظل هذا الرجل ، بالرغم من اضطراب حالات عصره ، محتفظاً بهدوء نفسه ، وسلام روحه . وربما يكون قد حدث في تلك البيئة ، على قدم عهدها وقربها من أوليات الحركة الفكرية ، مثل ما نراه قد حدث في غيرها من البيئات قريبة العهد بزماننا ، من تناسخ مذاهب الفكر وتغيرها على وجه الدوام ، هذا يجيء ، وذلك يذهب ، دوراً بعد دور ، بمقتضى المسالك التي يتجه فيها الفكر ، وهي مسالك ، شد ما تغمض علينا أسبابها .

تقوم الامبراطوريات فتزهو وتزدهر ، ثم تضمحل وتموت . وبالقياس على ذلك ، وان كان مع الفارق ، اضمحلت في مدينة أفسوس طائفة النبلاء ، وطرى طائفة ذوي المصالح الحقيقية ، كما أمرهم في مصرنا هذا . وفي غمرة تلك الأحداث ، وفي وسط ذلك القلق البادي في حياة الاغريق لدى أول عهدهم بفترة الفكر ، ولفترة الفكر انطلاقاتها العنيفة كفترة الحياة تماماً ، تقع على رجل من أشد تلك الطبقة النبيلة كما أصبحت ، ضم أرستقراطية المولد والنشأة ، أرستقراطية المواهب العقلية : تقع على هيرقليطس ، يعمل وينشر ، بالرغم من موضعه هذا ، بحرية الفكر المطلقة ويؤيدها ، ويطلبها غير مقيدة بقيد ولا معلقة بشرط . ولكنه برغم هذا كله ، على ما تتصور من أمره ، يشعر بالخيبة والحزن ، إذ يرى أن تأملاته الفلسفية لا تلقي على ما حوله من العقول والاشياء ، إلا أشعة ضعيفة حائلة اللون . وفي فصول تلك المسرحية التي يمثل أدوارها أشخاص بعدوا عن التفكير الفلسفي ، وحرموا نعمة التأمل في حقيقة الاشياء ، حتى لقد عدموا الشعور بما كان قائماً من حالات الدنيا الحافة بهم فمضوا فيها منكرين ، كان هيرقليطس وحده الانسان المفكر الواعي بذاته .

يتأمل . وفي تأملاته خصائص ذلك الحزن الذي يملك زمام الشباب اذا اضطر الى التأمل وأفعمته دنيا الانسان ودنيا الطبيعة ، بغذاء التأمل . وفي لحظة يشعر بأنه قد عمر وانه أصبح شيخاً ، وأن حرارة الدنيا التي صلته صفة الشباب ، قد أخذت تتناقص ، وأن قرها قد أصبح في حناياه .

ومع هذا فان هيرقليطس ، قد مضى مترفعاً عن العامة ، مبتعداً عن السوقة ، ليفكر ويتأمل . كان ذلك في عصر نقول انه ربيع التاريخ الاغريقي ، والدنيا من حوله تعرس السحاب ، والحياة تتدفق في تيارها المنسجم الدائم ، فانعكس من هذه الاشياء على فكره صور كونت لباب تأمله وعناصر فلسفته التي لم تتخذ صورة البحوث المطولة ولا صبت في

قال مقتضب : ان كانت أقوالاً تدور حول فكرة أساسية من التآلف المستمر ، وأن كل الأشياء تزول ولا شيء يبقى .

(Panta chowrei kai oudeu monei)

صرّ من قبل هيرقليطس بحاثات وفلاسفة من طابع آخر . فلاسفة طبيعيون تطوحوا مع ظنون حرية متناقضة في حقيقة ما تتألف منه العناصر الاولية ، ودنيا الاشياء المرئية ، والشمس والنجوم والحيوان ، وتسلقوا من ذلك الى البحث في ما تتألف منه أرواحهم وابدانهم . كان هؤلاء جزءاً من عالم التجديد الافريقي في ذلك العصر ، عصر الانطلاق العقلي . كانوا بمثابة مجموعة من المغامرات العقليـة ، وقعت في أرض مجهولة أو بحر غير مطروق .

إن الشخصية العقلية التي أدت اليها فلسفة هؤلاء كانت فوضى غامرة عبرت عن روح الشباب المتوثبة الجموحة المتمردة ، ولا تنسى ان كلمة «شباب» في اليونانية (Neotys) قد عبرت عن الغرور والنزق . وقد عبرت تلك الروح متسائلة قلقة رافضة كاملة مترجرجة متعلقة ببينات رجلة غامضة ، متمردة على النظام ، بعيدة عن اتباع أسلوب معين ، مطلقة من القيود ، إباحية غير مسئولة . هذه الآراء ، بحكم حلولها ثم ذهابها ، وتلك التخيلات التي صيغت في حقيقة الدنيا وما يختفي وراء ظواهر الدنيا المحسوسة ، كانت بطبعها عناصر مائجة تتموج على صفحة الوجود .

نعم . نقول « صفحة » الوجود . ولكن أي شيء يختفي وراء هذه « الصفحة » المرئية ؟ ذلك ما انكر وجوده هيرقليطس . بشّر بذلك لسامعيه وقارئيه . ليس من شيء الا « الحركة الدائمة » في الاشياء وفي الآراء التي تتعلق بتلك الاشياء . تلك الفلسفة الحزينة الواهية بذاتها ، نسخة هيرقليطس الشاب الذي تقدمت به المعرفة فوق سنيه ، وفي ذلك الوسط الذي مثل شباب العقل في شباب دنيا الفكر ، لم يستطع ذلك الفيلسوف أن يستقري على ثبات تلك الفكرة في نفسه ، فكرة « الحركة الدائمة » أو « التآلف المستمر » .

أليست هذه الفكرة بذاتها دليلاً على الحركة المستمرة ؟ أليست حركة انتقال من الماضي الميت ، الذي مضى تحتبطه أصلحت به الى « الحاضر » ، هذا الذي سوف يموت أيضاً ، قبل ان نتمكن من أن نشير إليه بقولنا « هاهو ذا » ؟

عقل تحليلي من أقوى ما أبدعت الطبيعة من العقول تناول المعلومات وتناول العقل ، وأحاط بكل المعارف التي ذاعت في زمانه ، وحدد الفكر تحديداً منطقياً كاملاً . ذلك ما وهبته به المقادير من هبات الطبيعة ، فهي بحر وراءه الاشخاص والاشياء من عالم الحركة

الظاهرية الجزئية الى عالم آخر من الحركة الكلية ، حتى ليخيل إليك انه حاول أيضاً أن يجر الارض من تحت قدميك ، فيقذف بها في تيار تلك الحركة الجارفة .

***

إليك مبدأ التضاد ، وإليك مبدأ الزوال : المبثوثان في كل ظواهر الطبيعة . أليسا هما المبدآن المبثوثان في تضاعيف العناصر الاولية التي تتكون منها المادة والتي تتكون منها النفس ؟

في كتاب إقراطيلوس : يقول سقراط . « ما من أحد عَبَر مرتين فوق مجرى واحد » هذا التغيّر السريع ، اذا لم يجعل المعرفة مستحيلة استحالة مطلقة ، فانه يجعلها على الاقل نسبية في مجموعها ، أي انها تصبح غير ذات قيمة كما يقول أفلاطون . وبذلك يصبح الانسان وسط هـذا العالم المتدفق ، وعند نقطة الزوال، تلك التي تحتكم في المكان والزمان ، مقياس كل الأشياء .

من عبارات أخرى في كتاب « إقراطيلوس » يمكن إن نفهم وجهاً آخر من مذهب هيرقليطس . وجه ينحصر في محاولة حاولهـا عساه يردّ ذلك الوجود الذي تغمره فوضى « الدلف المستمر » ، وجوداً نظيماً ذا قوانين وسنناً تحكمه، فلعلّ هنالك « أنغة دوريـة » Antiphonal rythm أو منطقاً كونيًّا يضبط الوجود فيتجانس فيه التنقل من حركة إلى حركة ، كما لو كان ذلك المنطق تأليفاً موسيقيًّا معقّداً ، يربط معاً وفي جملة واحدة ، جميع تلك الفواصل المتباينة المتباينة صورها ، والتي يمضي فيها التباين إلى غير نهاية أو غاية .

كان هذا بمثابة اعتراف ، حتى من ناحية ذوي الفلسفة التي تنكر التساوق وتجحد الاتساق، بضرورة ان تعود الى الوجود رتابته، بعد ان غمرته الفوضى الدائمة غير المستقرة، فوضى الطيرة الى الدلف أي الحركة

ولـكن اذا كان الفيلسوف الباكي ، وهو رأس المتشائمين ، قد يجد في خضوع الوجود كله لمبدأ التغيّر وعدم الثبات ، مُستَمَدّاً يستمد منه بواعث حزنه وألمه ، فأجدر به ، ولا ريب ، ان يكون أشد حزناً عندما يرى ان أذن الانسان قد صُدّت ، وان عقله قد استغلق ، فلا هو يسمع ، ولا هو يفقه ، من ذلك اللحن الحزين المنساب في ارجاء الكون ، شيئاً .

اسماعيل مظهر

على طريقة أبيقور

لا شك يصعب علينا شيء من الاتصال اذا أردنا أن نصور عقل الانسان في العصر القديم ، حيث أعتقد اعتقاداً لا يوهنه الشك ، ان الأرض في مركز النظام الدنيوي ، وان كل الكواكب يدرن من حولها . لقد شعر تحت قدميه بأرواح الذين أصابتهم اللعنة يتقلبون في النار ألماً ، وربما خيل اليه انه رأى بعيني رأسه وشم بذات أنفه ، أدخنة الكبريت تنبعث من جهنم مقبلة من خلال صدع في الصخور . فاذا رفع رأسه الى أعلا تطلع الى الافلاك الاثني عشر ، الى فلك العناصر وفيه الهواء والنار ، ثم أفلاك عطارد والزهرة التي زارها دانتي في يوم « الجمعة » الحزينة من سنة ١٣٠٠ ، ثم أفلاك الشمس والمريخ والمشتري وزحل ، ثم القبة الزرقاء التي تُعلَّق فيها النجوم كأنها المصابيح . ومن وراء هذه ، رأى بعيني عقله ، السماء التاسعة أو الفلك التاسع ، مقر القديسين ، ثم المحرك الاول أو الفلك البلوري ، ثم في النهاية المطهر ، مقام المنعمين واليه تتطلع نفسه بعد الموت ، أن يتلقفها ملكان يلبسان البياض ، كما لو كانت نفسه في طهر الطفل الوليد ، فتغتسل بالتعميد وتعطر بزيت السر المقدس .

في ذلك العصر لم يكن لله من اولاد غير الانسان . أما بقية خلقه فقد نظم بطريقة أقرب الى الطفولية وفي صورة شعرية ، فكأنما هي كاتدرائية عظيمة . فاذا تصورنا الكون على ذلك ، ألفيناه بسيطاً ، حتى لقد نتخيله في مجموعه ، وبمختلف صوره وحركاته ، كأنه آلة مركبة من آلات عدة .

أما الآن فقد قوّضت الافلاك الاثني عشر، وكذلك الكواكب التي كان الانسان يولد في ظلها سعيداً أو شقياً، مشتري الحياة، وزحل بها. أما القبة الصلبة التي هي السماء، فقد تهشمت وتطايرت شظايا في اعتبارنا. وبذلك اخترقت العيون والافكار أغوار الكون اللانهائية. فلا نجد اليوم ذلك المطهر مستقر الصالحين والملائكة، قائماً من خلف السيارات بل مئات الملايين من الشموس، تحوطها من الاقمار والتوابع ما لا تراه العين المجردة. وفي وسط تلك العوالم اللانهائية يقع عالمنا، كأنه ذرة من غاز، وأرضنا كأنها ذرة من طين.

العوالم تموت، لانها تولد. انها تولد وتموت إلى غير نهاية. والخلق يحكم انه ناقص وبعيد عن الكمال، لا بدّ من أن يعتوره التغير بغير انقطاع. إن الشموس تنطفيء، فلا نقدر ان نقول اذا كانت بنات الضوء هذه، تبدأ بموتها على هذه الصورة، حياة اخرى في صورة سيارات، فتكون حياتها الجديدة حياة مفعمة بالخير. كما لا نقدر ان نقول ما اذا كانت السيارات قد تنحل فتصير شموساً تارة أخرى. كل ما نعرف أن السكون غير كائن، لا في السماء ولا في الارض، وان سنة العمل والجهد تحكم العوالم، وتقدّر مصايرها الى ما لا نهاية.

هنالك شموس انطفأت أمام أعيننا، وأخرى تومض بضعف كأنها لهب شمعة كادت تذهب. أما السماوات التي خيّل للناس انها ثابتة لا تتغير، فانها لا تعرف شيئاً من معنى الابدية، اللهمّ الا أبدية انها مسوقة في مجرى الاشياء.

من حديقة أبيقور : أناتول فرانس